

حكم تراجان

مقال مأخوذ من كتاب أزمئة العهد الجديد

(New Testament Times)

بقلم: ميريل سي. تني

إدارة تراجان

جلبت النظرة الإنسانية المعتدلة التي كان نيرفا يتمتع بها، الخلاص من التوتر الذي ولده حكم دوميتيان الاستبدادي. وقد أُنِج الاعتاق من الخوف رد فعل ضد مساوئ الماضي وشروعه، وصار الناس تحت نظام الحكم الجديد يتجرأون على اتهام المسيئين الذين لم يكونوا يجرؤون على تحديهم. وكان نيرفا، بسبب تقدمه في العمر وصحته السيئة، غير قادر على إحكام قبضته على الفرق المتحاربة. فظهرت مؤامرات كثيرة، وتعرضت حياته عدة مرات للخطر، على الرغم من أنه نجا من الاغتيال بفضل شجاعته وأمانته. وقد علق القنصل فروتو تكاراً قائلاً إنه كان أمراً سيئاً أن يكون هنالك إمبراطور لا يمكن لأحد أن يفعل شيئاً تحت حكمه، لكنه أمر أسوأ أن يكون هنالك إمبراطور يمكن لأحد أن يقوم بأي شيء تحت حكمه. تطلب السلام الدائم للإمبراطورية يداً أقوى من يد نيرفا، على الرغم من أن قدومه تلقى ترحيباً كراحة من فظائع دوميتيان وقسوته.

بُهِت ثورة أولية للحرس الإمبراطوري نيرفا إلى أنه يتوجب عليه أن يعلن عن هوية خليفته. فأعلن أنه سيكون ماركوس ألبوس نيرفا تراجانوس، والي ألمانيا، الذي أعلن تبنيّه له. وكان تراجان قد قام لثوّ بحملة عسكرية ناجحة، وكان محبوباً من قواته. كان جندياً شجاعاً وإدارياً قديراً، ومنضبطاً جداً. تمسك بالعدل في معاملاته مع رعاياه، ولم يكن مصاباً بالإفراط في النزوة ككثيرين أو بالجشع كدوميتيان. ولم يتسم بالغطرسة أو بالغرور، كما يقول المؤرخون الذين كتبوا عن حكمه.

ارتقت الإمبراطورية إلى قمة قوتها تحت حكم تراجان. فامتدت فتوحاته شمالاً عبر نهر الدانوب ومقاطعة داشيا، وجنوباً إلى خط صحراء شمال إفريقيا، مما زاد من مساحة الأراضي الزراعية المتوفرة للاستيطان وحاول أن يتقدم شرقاً ضد الباراثيين الذين خلعوا ملك دولة أرمينيا التي كانت تشكل فاصلاً بينهم وبين الإمبراطورية الرومانية، ووضعوا على العرش عضواً من العائلة المالكة الباراثية. أمر تراجان والي سورية بأن يستولي على مملكة الأنباط العرب على الحدود الجنوبية لسورية وفلسطين، ثم غزا أرمينيا، وخلع الحاكم الباراثي وجعل أرمينيا مقاطعة رومانية. وتحرك شرقاً إلى منطقة ما بين النهرين فسيطر سيطرة مباشرة على الدويلات الصغيرة المستقلة على الحدود الباراثية. وفي ربيع عام ١١٦م استأنف تراجان هجومه بغزو أديابين، وهي دولة إلى الشرق من نهر دجلة بقيت موالية لباراثيا. وحرك قواته عن طريق نهر دجلة إلى بابل. وهناك وصلته أخبار أن المناطق إلى الشمال منه قد تمردت وأن الباراثيين يستعدون للهجوم على آشور وأرمينيا. أدرك تراجان أنه ليس لديه ما يكفي من الموارد للاحتفاظ بالمناطق الشرقية، وبعد إخماد التمرد انسحب طوعاً إلى الغرب. لم تنجح روما قط في فرض سيادتها على منطقة ما بين النهرين.

أعاقت محاولة غزو الشرق ثورة يهودية بدأت في قورينة (Cyrenaica) في عام ١١٥ م وأثرت على المستوطنات في قبرص ومصر وفلسطين وحتى منطقة ما بين النهرين. ويقول ديوكاسيوس* إن اليهود ذبحوا جيرانهم الأثمين بأفضع قدر من الوحشية. ونجح تراجان في إخماد النزاع إلا في مصر حيث تمكن أخيراً هادريان من حسم الصراع. غير أن التملل اليهودي بقي حتى التمرد الثاني في عام ١٣٥ م.

ساعات صحة تراجان في صيف عام ١١٧ م. فغادر أنطاكية قاصداً العودة إلى روما، لكن حالته ازدادت سوءاً، فمات في كيليكية في شهر آب.

كان تراجان الأقوى والأفضل من بين كل الأباطرة الذين حكموا قبله. لم يلجأ إلى ابتزاز أعدائه وحرمانهم من حماية القانون. أعطى المقاطعات إدارة سليمة للحكم وجعل الحدود مستقرة. وتم كبح الخطر البارثي على الرغم من عجزه عن إخضاع ممالك الشرق الأوسط. وقد كان معترفاً بشكل عام بإنصافه وعدله.

تراجان والمسيحية

تحت حكم تراجان الرؤوف لم يكن هنالك اضطهاد واسع للكنيسة على الرغم من أنه ربما كانت هنالك هبات من الاضطهاد في المقاطعات التي جاهر فيها المؤمنون بالمسيح بإيمانهم بقوة أو كان الولاة يرون أنهم يشكلون عنصراً هداماً. والمثال التقليدي للنظرة الرومانية في هذه الفترة محفوظ في رسائل بليني الأصغر الذي كان تراجان قد عينه والياً على بيشنية. كان بليني غير متمرّس في شؤون الدولة، وكُتب خطابات كثيرة لرئيسه حول كل أنواع المشاكل، كبيرة وصغيرة وفي إحدى رسائله الأخيرة، عرض مشكلة المسيحيين في مقاطعته. وفي ما يلي رسالته كاملة مع ردّ تراجان عليها:

بليني إلى الإمبراطور تراجان

الرسالة رقم XC VII

"إن سياستي التي لا أحمدها، يا سيدي، هي أن ألجأ إليكم في كل الأمور التي أحس فيها بالشك؛ فمن هو أكثر قدرة منك على إزالة حيرتي وتوثير جهلي؟ لم أكن حاضراً قط في أي من المحاكمات المختصة بأولئك الذين يجاهرون بإيمانهم بالمسيحية، ولذا فأنا لست مطلعاً لا على طبيعة جرائمهم أو على مقدار العقاب الذي يستحقونه، لكن لا أدري إلى أي مدى يليق بي أن أدخل في نقاش معك حول موضوعهم. أود أن أسأل إذاً، إن كانت مسألة أعمارهم تحدث فرقاً (في العقاب)، أو إذا كان يتوجب مراعاة الفروق بين الشباب والبالغين؛ أو إن كان استنكارهم لعقيدتهم يخولهم حق مساحتهم؛ أو إن كان رجل مؤمناً بالمسيح في ما مضى، فهل من نفع من وراء كنهنا له عن خطئه؟ أو إن كانت المجاهرة نفسها بالمسيحية دون أن تكون مصحوبة بأي عمل إجرامي، أو فقط تلك الجرائم المتأصلة في المجاهرة بالإيمان هي التي تستحق العقوبة؛ لدي شك كبير حول هذه النقاط كلها. وفي هذه الأثناء، فإن الأساليب التي اتبعتها في التعامل

* رسائل بليني الأصغر.

مع هؤلاء الذين أحضروا إلى كمؤمنين بالمسيح هي كما يلي: كنت أسألهم إن كانوا مؤمنين بالمسيح؛ فإذا اعترفوا بذلك، كنت أكرر السؤال مرتين، وأهددهم بالعقاب؛ فإذا تمسكوا بموقفهم، أمرت فوراً بمعاقبتهم؛ إذ كنت مقتنعاً، بأنه مهما كانت طبيعة آرائهم، فإن الاستمرار في العناد غير المرن أمر مستحق للعقاب بالتأكيد. وقد أحضر أمامي أيضاً أشخاص آخرون تستحوذ عليهم نفس الأفكار، لكن لأنهم مواطنون رومان، أصدرت توجيهاتي بإرسالهم إلى روما. لكن هذه الجريمة انتشرت (كما هو الحال عادة) وهي ما تزال تحت الفحص والتحقيق، وقد حدثت عدة حالات من نفس هذه الطبيعة (معي). وقد وصلتني أخبار من مصدر مجهول تحتوي على تهمة ضد عدة أشخاص. وعندما حققت معهم أنكروا أنهم مؤمنون بالمسيح أو أنهم كانوا يوماً كذلك. وقد كرروا ورائي دعاء للآلهة، وقاموا بطقوس دينية مقدّمين خمراً وبخوراً أمام تماثيلك (وهذا هو السبب الذي أمرت بإحضاره، بالإضافة إلى تماثيل الآلهة)، حتى إنهم شتموا اسم المسيح دون أي إجبار منا، على عكس المؤمنين بالمسيح الذين نستخدم القوة معهم لإجبارهم على المطاوعة. ولهذا فقد رأيت أن من المناسب أن أطلق سراحهم. اعترف بعض من بين الأشخاص الذين اتهمهم شاهد عيان شخصياً في بداية الأمر بأنهم مؤمنون بالمسيح، لكنهم قاموا بإنكار ذلك مباشرة بعد ذلك؛ أما البقية فقالوا إنهم كانوا من المؤمنين سابقاً، لكنهم الآن (مضى على بعضهم ثلاث سنوات، وبعضهم أكثر، وبعضهم أكثر من عشرين سنة) استنكروا خطأهم. وقاموا كلهم بالسجود لتماثيلك وتماثيل الآلهة، وفي نفس الوقت شتموا ضد اسم المسيح. أكدوا ذنبهم كله، أو خطأهم، وهو أنهم كانوا يجتمعون في يوم معين قبل بزوغ النور، ويقدمون شكلاً من أشكال الصلاة للمسيح، كما لإله، رابطين أنفسهم بقسم جاد، لا لأغراض ذات هدف شرير، وإنما بأن لا يرتكبوا أية أعمال احتيال أو سرقة أو زنى، وأن لا يشهدوا بالزور أو يكذبوا، أو أن ينكروا دبيعة إذا طلب إليهم أن يعيدوها؛ وبعد ذلك كان من عادتهم أن يفرقوا ثم يعودوا للتجمع، لكي يتناولوا معاً وجبة مشتركة لا ضرر منها. غير أنهم، انطلاقاً من هذه العادة كفّوا عن الانصياع للمرسوم الذي أصدرته بناء على أوامرك بتحريم أية اجتماعات. فبعد أن تلقيت هذا الخبر، رأيت أن من الضروري أكثر من ذي قبل أن أحاول انتزاع حقائق الأمور وذلك بتعذيب أمتين قيل أنهما توديان مهاماً في طقوسهم الدينية: لكن كل ما تمكنت من اكتشافه كان أدلة على خرافات عبثية مبالغ فيها. ولهذا رأيت أن من المناسب أن أوجل كل المحاكمات حتى أستشيرك. إذ يبدو لي أن هذه مسألة جديرة باهتمامك الكبير، خاصة أن أعداد كبيرة متضمنة في هذه التحقيقات، والتي اتسعت بالفعل، ومن المحتمل أن تمتد إلى أشخاص من كل المستويات والأعمار، وحتى من كلا الجنسين. وفي واقع الأمر لا تقتصر هذه الخرافة المعدية على المدن، بل امتدت عدواها إلى القرى والريف. غير أنه ما يزال يبدو كبح تقدمها أمراً ممكناً. فقد بدأت الهياكل التي كانت مهجورة في ما مضى تزار من جديد؛ وبدأت الطقوس المقدسة تنعش بعد انقطاع طويل. ويزيد الطلب الآن على الذبائح، التي لم تجد لها مشترين كثيرين حتى وقت قريب. من هنا فإن من السهل أن يخمن المرء أن أعضاء (هذه الجماعة) يمكن إصلاحهم إذا تم منح عفو عام لكل الذين يتوبون عن ضلالتهم هذا.

د: تراجان إلى بليني

الرسالة رقم XC VIII

لقد اتبعت الطريق الصواب أيها الصديق الأعز، في التحري عن التهم الموجهة ضد المؤمنين بالمسيح الذين أحضروا أمامك. ليس ممكناً وضع أية قاعدة عامة لمثل كل هذه الحالات. لا تسعى للبحث عنهم، لكن إذا أحضروا أمامك بالفعل، وثبتت جريمتهم، فإنه يتوجب عقابهم: لكن مع هذا التقييد، وهو أنه إذا أنكر شخص أنه مؤمن بالمسيح وأتضح أنه ليس مؤمناً بالمسيح، بالدعاء لآلهتنا، فليعف عنه (بغض النظر عن أي شك سابق به) عند توبته. لا يجب أن تقبل أية معلومات من مصدر مجهول في أي نوع من التحقيقات. فمن شأن هذا أن يشكل سابقة خطيرة، وهو أمر غريب جداً عن روح عصرنا.

تكشف تحقيقات بليني أنه كان أحد الأرستقراطيين الرومان وذا معرفة قليلة بالمسيحيين، ولم يكن مطلعاً على الطبيعة الحقيقية للمسيحية. ومن الواضح أن الذين أحضروا للمحاكمة لم يكونوا متهمين بإساءات محددة؛ بل إن كونهم مؤمنين بالمسيح يتضمن افتراضاً مسبقاً بالذنب. ويوحى مثل هذا الافتراض المسبق بأن حكماً سابقاً صدر باعتبار المسيحية بشكل عام مخالفة للقوانين، ربما صدر في أوائل حكم تراجان، أو بمرسوم إمبراطوري من فلافيانس أو نيرون.

ويقدم لنا بليني إشارة إلى أن المرسوم الذي أصدره ضد المسيحية جاء بسبب أوامر تراجان له بمنع عقد أية اجتماعات. فلم تكن المسألة دينية أو لاهوتية بشكل رئيسي، فقد كان الرومان متسامحين بشكل عام مع الديانات الوطنية أو الغريبة، لكن المسألة هي أن أية جماعة أو رابطة مستقلة، خاصة في المقاطعات، كانت تعتبر مصدراً محتملاً للتخريب.